إرادةٌ متحرّرة في وطنٍ معتقل

بقلم: فيصل دراج

لا غرابة أن تستضيف مجلةُ الآداب أصواتًا ثقافيةً من فلسطين المحتلّة. فقد بقيتْ مجلةُ سهيل إدريس ما كانت إيّاه دائمًا، رغم زمن عربيّ ضيّق، التداعي هو صفتُه المسيطرة. ولا غرابة أن تبقى «فلسطينُ التاريخيةُ» صوتًا ثقافيًا حرًا متجدِّدًا، منذ أن أَطْلق فيها نجيب نصّار نداءَ **الكرمل** قبل قرن من الزمن تقريبًا. يتصادى، في الحالَيْن، صوتُ الثقافة الوطنية التي تُحيل على كينونة إنسانية حرة قبل أن تستدعي مساحةً جغرافيةً محتلّة ـ فالأرض في ذاتها لا تقول شيئًا. ويتلامح، في الحالَيْن، مفهومُ «الثقافة الوطنية العربية،» مبرهنًا أنّ في العروبة ما يجدِّدها، رغم دعاوى متثاقفةٍ حائرةٍ تساوي العروبةَ بالاستبداد حينًا، وتَقْرن الانتماءَ القوميَّ العربيَّ بالتخلّف حينًا آخر. ولأنّ في الأمر ما يرتبط بتجربة إنسانية معيشة منقطعةٍ عن «الثقافة المتعالمة،» تكون أقلامُ «فلسطين التاريخية» عروبيةً، ويكون فيها ما يَنْقض تزويرًا مسالمًا يرى السلامَ في معادلات مخلوقة مريضة.

تَنتزع هذه المساهماتُ الثقافية الفلسطينية من القارئ العربيّ الاحترامَ والإكبارَ والتقدير لأكثر من سبب. فهي مواجَهةٌ وطنيةٌ مفتوحةٌ مع سياسة ثقافية إسرائيلية سعت منذ احتلال فلسطين إلى طمس الثقافة العربية وتخليقِ كيانٍ ثقافيّ فلسطينيّ هجين لا ينتمي إلى الثقافة العربية ولا تَقْبل به الثقافةُ الإسرائيلية؛ كيانٍ معلّقٍ في الفراغ، جوهرُه محاكاةٌ خادعةٌ يَخْلع فيها الفلسطينيُّ وجهَه العربيّ ويَظْفر بقناعٍ يدلّل على «أسْرَلَتِه» المستحيلة؛ شيء قريبٌ من «الأَسْود» المخذول الذي يلتمس لدى «زيّه الأبيض» وجهًا أبيضَ لا وجودَ له. وهي ثقافة ـ ذاكرة، تحتفظ بتفاصيل الزمن الذي كان، معوِّضةً المكانَ المفقودَ بكتابةٍ فطنةٍ تَعْرف أنّ سرّ الوطن في الذاكرة، وأنّ سرّ الذاكرة في الإنسان الذي لا يخطئ الحسبان. وما الذاكرة ـ الوطن إلاّ «الهنا والآن»: ذلك أنّ الحاضر المعيش بوتقةٌ ذهبيةٌ انتهى إليها الماضي وينطلق منها المستقبل. فلا وجودَ لفلسطينيٍّ مجرّد، لأنّ الفلسطينيّ هو ممارستُه الوطنية؛ ولا وجود لإسرائيليٍّ مجرّد، لأنّ معنى الإسرائيليّ يقوم في موقفه العمليّ من الفلسطينيّ. ولهذا يظلّ «الهنا والآن» مَرْجعًا لكلّ ثقافة وطنية، فلسطينية كانت أو غيرَ فلسطينية، بعيدًا عن أرواحٍ مقوَّضةٍ تجعل من «الهزيمة الفلسطينية» المرغوبة أساسًا للانتصار الإسرائيليّ المفترض. وهذه الثقافة، رغم العسف والحصار، ثقافة وطنية بعيدة عن التعصُّب والانغلاق، تَقْبل بـ «الآخر» رغم ارتباك هذه الكلمة، شرطَ أن يقبل هذا «الآخرُ» بها، مدركةً أنّ اعتراف «القويّ» بـ «الضعيف» مقدّمةٌ لهزيمة القوة المحتلّة وإشعارٌ بأنّ ما بدا مهزومًا ذاتَ يوم لن يظلّ مهزومًا إلى الأبد.

ولأنّ هذه الثقافة، كما تُظهر الصفحاتُ القادمة، ذاكرةٌ وطنيةٌ، فإنّ فيها تذكيرًا بثقافة وطنية فلسطينية سَبَقتْ وكانت امتدادًا لها: فيها تتراءى أطيافُ خليل السكاكيني، الذي احتفظ في مذكّراته اليومية الشاسعة بصور فلسطين اليومية لمدّة نصف قرن؛ وقصائدُ إبراهيم طوقان وأبي سلمى ونوح إبراهيم وعبد الرحيم محمود وتوفيق زيّاد؛ وكتاباتُ إميل توما، المؤرِّخ النزيهِ الذي لا يَعْرف المساومة؛ وحكاياتُ إميل حبيبي، الذي قسا علينا قبل أن نقسو عليه، كما يشير العزيز أنطون شلحت. تنتمي الأصواتُ الفلسطينيةُ «الجديدة،» ولها أعمارٌ مختلفة، إلى نسق ثقافيّ وطنيّ فلسطينيّ سابق، تُطَوِّره وتَستضيء به وتُضيئه، مؤكّدةً وحدةَ الثقافة الوطنية في أطوارها المختلفة.

جديرةٌ هذه الثقافة الفلسطينية المتجدّدة بالاحتفاء بسبب مفارقة مؤسية، حَدُّها الأولُ طرفٌ إسرائيليٌّ يجتهد في تدمير الثقافة الفلسطينية، وحَدُّها الآخر طرفٌ عربيٌّ «قديمٌ» قليلُ الحكمة كثيرُ البلاغة. فقد تحدّث الإعلامُ العربيّ الرسميّ طويلاً عن «عرب ٤٨» أو «عرب إسرائيل» أو

«عرب المناطق المحتلّة،» منتهيًا إلى خلْع الصفة الفلسطينية عنهم، ومستأنفًا بذلك وموطِّدًا الخطابَ الإسرائيليَّ الذي يَقْبل بالعرب ولا يَقْبل بالفلسطينيين، وخالطًا الصفةَ المتبقّيةَ بالكثير من الشكّ والاتّهام، وكأنّ «الفلسطينيّ السليم» هو الذي تَرَك فلسطين وآثر السلامةَ في «ديار العُرْب.» كان في هذه المحاكمة العرجاء ما يثير الأسى لأنّها تتّهم وتُضير فلسطينيًا مقاتلاً جديرًا بالدعم والمؤازرة، وكأنّ على الفلسطينيّ الذي تمسّكَ بأرضه أن ينضمّ إلى «مكاتب البلاغة العربية» التي تطالب الفلسطينيين بـ «مقاطعة إسرائيل» ـ أيْ بالخروج من أرضهم! ولعلّ هذه البلاغة، المؤسَّسةَ على الجهل واللامبالاة، هي التي لاتزال تَطْرح على العرب الفلسطينيين في «الداخل» سؤالَ «التطبيع الثقافيّ مع العدوّ الإسرائيليّ.» فإذا كانت هناك أطرافٌ عربيةٌ تحوّل أحيانًا شعارَ «محاربة التطبيع الثقافيّ مع إسرائيل» إلى شعار غائم يُحيل على «إسرائيلي» مجرّد، أو إلى شعار برجماتيّ يستولد «المعارضةَ الوطنيةَ» من أكثر المواقع سهولةً ورخاوةً، فإنّ الثقافة في فلسطين التاريخية تتعيّن ممارسةً وطنيةً مشخّصةً تَفْصل بين «طبْع فلسطينيّ» يَرْفض الخضوع و«طبْع إسرائيليّ» أَدْمن قهرَ الفلسطينيين وقمعَهم. وإذا كان «عدم التطبيع،» بالمعنى العربيّ، يَفْترض عدمَ لمس الإسرائيليّ أو رؤيتِه، فإنّ الممارسة العربية للثقافة في فلسطين التاريخية تَسْتلزم لقاءَ الإسرائيليّ ورؤيتَه لأنّ في هذه الممارسة التحامًا مباشرًا بالإسرائيليّ وصراعًا يوميًا معه. وهو ما يَجْعل هذه الثقافة، كما نرى، تَرْصد الإسرائيليَّ في ملامحه جميعًا، كما لو كان هذا الأخير علاقةً داخليةً في الكتابة الفلسطينية، قائمًا في استرجاع الماضي وقائمًا في انتظار المستقبل أيضًا.

لا يَطْرح المثقفُ الفلسطينيّ، الذي يعيش الاحتلالَ الإسرائيليَّ ولا يتعايش معه، سؤالَ «التطبيع الثقافيّ،» بل يَطْرح إنتاجَ الهوية الوطنية بأدوات ثقافية: كيف يُمْكن إنتاجُ ثقافة وطنية في وطنٍ مُصادَر؟ كيف تُنْجز الثقافةُ الفلسطينية سياسةً ثقافيةً مطابقة تُواجه سياسةً ثقافيةً إسرائيليةً نقيضة؟ كيف تقاوم «الثقافةُ الخاضعةُ،» وأدواتُها الإرادةُ والمقاومةُ والتحدّي، الثقافةَ المسيطرةَ التي تعتمد على أجهزة الدولة الإسرائيلية المتعدّدة؟ وما معنى الهوية الثقافية الوطنية في الحالات جميعًا؟ تضيء الثقافة الفلسطينية ضدّ الاحتلال معنى الهوية في اتّجاهات متعدّدة: فهي هوية في مواجهةِ هويةٍ أخرى مغايرة: بل إنّها هويةٌ **لأنّها** تتّخذ من المواجهة جوهرًا لها، إذ لا وجود لهوية إلاّ في صراعها مع هوية أخرى تهدّدها وتسعى إلى القضاء عليها. ولأنّها هوية قائمةٌ على الصراع والمواجهة، أيْ بعيدة عن التجريد والبلاغة، فإنّها تكون متعدّدةَ العناصر: تتضمّن التجربةَ الوطنيةَ الماضية، وتتجدّد بتجدُّدِ المعطيات المتغيّرة، وتَنْقد ذاتَها في عملية الصراع التي تهمِّش التنظيرَ المجردَ ونصائحَ الكتب. وبهذا المعنى، فإنّ الهوية الثقافية العربية في فلسطين مشروعٌ ثقافيٌّ مفتوح، لا يَكْتمل، ولا يُمْكنه أن يكتمل، إلاّ لحظةَ إجبار الهوية الثقافية الإسرائيلية على تعديل مقولاتها، وعلى الاعتراف بالهوية الفلسطينية هويةً تاريخيةً لها الحقُّ في الوجود كمرآةٍ لشعبٍ له الحقُّ في الوجود أيضًا.

قد لا يكون غريبًا تمامًا أن تتكوّن الثقافةُ الفلسطينيةُ في منفيَيْن غير متساويَيْن: أحدُهما «المنفى المألوفُ» الذي وَضَعَ فلسطينيين في بلاد عربية مختلفة، وثانيهما «المنفى اللامألوفُ» الذي جعل الفلسطينيين منفيين في بلادهم. فقد أعطى المنفى الأولُ، الذي اختلطتْ فيه بيروتُ بدمشق وبغداد، جبرا إبراهيم جبرا وغسان كنفاني وناجي العلي وأنيس صايغ وغيرَهم، كما لو كانت الحواضرُ العربية الثقافية قد زَوّدت المبدعين الفلسطينيين بثقافة يحتاجونها وأمدّتهم بالأدوات الثقافية التي تعبِّر بشكلٍ راقٍ عن مأساتهم الوطنية. أما المنفى الغريب الثاني، الذي جعل الفلسطينيّ غريبًا في وطنه، فقد أعطى إميل حبيبي وسميح القاسم ومحمود درويش وتوفيق زيّاد وغيرَهم. وبداهةً فإنّ بين المنفيَيْن فرقًا كيفيًا كبيرًا، لأنّ المنفى الأول مثقِّف (بكسر القاف) ولا يَضنّ على الفلسطينيين بالثقافة، على خلاف المنفى الثاني الذي يضيف إلى الثقافة الريفية الفقيرة المتوارثة أدواتِ قمعٍ تزيدها إفقارًا. ولهذا بدت الطليعةُ الثقافية الفلسطينية في المنفى العربيّ مقدّمةً لـ «الطليعة السياسية،» إنْ لم تكن طليعةً نوعيةً لا تتعرّف عليها «الطليعةُ السياسية» ولا ترغب في ذلك بسبب الفرق بين الثقافة المبدعة والسياسة التقليدية. وعلى خلاف ذلك، ظَهرت

الثقافةُ في فلسطين المحتلّة امتدادًا لسياسة نوعية تحتفي بالثقافة، آيتُها الحزبُ الشيوعيّ واتجاهاتٌ قوميةٌ عربية مناضلة. أكثر من ذلك: إذا كانت الثقافة الفلسطينية في «المنفى العربيّ» قد ارتبطتْ بأسماء مزدهرة وذبلتْ بعد رحيل هذه الأسماء، فإنّ الثقافة العربية في شروط الاحتلال الإسرائيليّ ظلّت مستمرّةً على الرُّغم من تبدُّلات كثيرة في المشهد السياسيّ. كأنّ إبداع غسان وغيره ارتبط بـ «أفرادٍ نجباء،» بينما ارتبطتْ ثقافةُ الداخل بقضيةٍ تعيش مع المحتلّ ولا تتعايش معه، «مطمئنةً» إلى صراعٍ لا هَرَبَ منه، يُنْتج ـ بأقدارٍ مختلفة ـ ثقافةً مأخوذةً بقيم الهوية الوطنية.

...

ربما تكون التعدُّدية شعارَ هذا «الملفّ الفلسطينيّ.» إنّها تعدُّدية في الأجيال، تحتضن أسماء معروفةً منذ زمن: حنّا أبو حنّا الذي أعطى سيرةً ذاتيةً جميلة ومجزوءةً عنوانُها **ظلّ الغيمة**؛ ومحمد نفّاع الذي يضع هويتَه في قصّته القصيرة ويجعل من لغته العربية الراقية عنوانًا كبيرًا لهذه الهوية؛ والعزيز طه محمد علي، ذلك الشاعر المبدع في موهبته وتقشّفه، والذي يَكْتب طليقًا ساخرًا من الشهرةِ وتسليع الأسماء؛ وأنطون شلحت، الذي يَنْقض في أخلاقيته الثقافية ثقافةَ المواسمِ والمواقفِ الصغيرة المتبدّلة؛ وفاروق مواسي وفهد أبو خضرة، اللّذيْن يجمعان بين الموقف الوطنيّ المسؤول والثقافة الراقية؛ وسعود الأسدي، الذي يكتب قصيدةً عاميةً في ألطف أشكالها؛ وأحمد حسين الذي يتأمّل الماضي قلقًا... وإلى جانب هذه الأسماء المعروفة وغيرها، يتعرّف القارئ العربيّ إلى جيل آخر: صالح حبيب، جريس دبيات، زهيرة صبّاغ، أحمد سليمان... وهناك تعدُّديةٌ في الأجناس الأدبية، التي تتضمّن الشعرَ والقصةَ القصيرةَ والروايةَ والمقالةَ؛ وتعدُّديةٌ في الرؤى والتصوُّرات، التي تتمسّك بالماضي ولا تريد أن تذوب فيه، وتتطلّع إلى المستقبل متمسّكةً بالإرادة الوطنية وباحثةً عن أشكال التعبير اللائمة. ولعلّ ما كتبتْه الباحثة صفاء طميش صورةٌ عن منظورٍ جديدٍ لمثقفٍ جديد، يُدْرك أنّ تحرير الإنسان، بالمعنى الوطنيّ، لا معنى له بغير تحرير الوعي؛ ذلك أنّ المعنى الوطنيّ لا يقوم في الشهيد بل في وضوح الهدف الذي قضى الشهيدُ من أجله.

...

ما الذي يستطيع الناقد، إنْ كان للكلمة من معنى، أن يقوله أمام نصوصٍ طافحةٍ بالحزن والمرارة والأسى والمقاومة؟ لا شيءَ إلاّ الاحتفاء والترحيب والمؤازرة، وذلك الشوق المخادع إلى زمنٍ سويٍّ يَسْمح بالمعالجة النقدية الباردة، زمنٍ بعيدٍ عن آخرَ معيشٍ يحاصر الكاتبَ والقارئَ والناقد: «للموتِ فينا خميسٌ مقيم» (جريس دبيات) ـ «هنا يرقد امرؤٌ حاول عبثًا أن يضيف خيطَ شعاعٍ إلى الشمس» (طه محمد علي) ـ «السلام على بقية الشهداء الندية» (حنّا أبو حنّا) ـ «الجنرالات يفكّرون كيف يخلّدهم التاريخُ» (سهيل كيوان) ـ «المكان الذي يردّد النداءَ المتواصلَ المكبوت» (محمد نفّاع) ـ «يعقوب الذي لا بداية له ولا نهاية» (أحمد هيبي) ـ «أن يغتصب نومي حلمٌ جميل» (علاء حليحل) ـ «أيام قاسية حافلة بالوجع والانتظار» (رجاء بكرية) ـ «والشدّة طالعة ونازلة طول النهار» (سعود الأسدي) ـ «الصغير المكفّن بنقاوة الثلج» (زهيرة صبّاغ).

كلُّ هذا الوجع الجَلُود يَجْعل النقدَ الباردَ نافلاً، دون أن يَمْنع ذلك من الإدلاء بملاحظتيْن عامتيْن: الأولى هي أنّ كلّ كتابةٍ أدبيةٍ باحثةٍ عن أفق، عليها أن تتعرّف جيّدًا على النسق الأدبيّ الذي تنتمي إليه، مدركةً أنّه أَنْتج ذاتَ مرةٍ روايةً جيدة وقصةً قصيرةً جيّدة، وأنّ الانتساب إليه انتسابٌ إلى الجيّد الذي جاء فيه. أما الملاحظة الثانية فترتبط بمجلة الآداب والقارئ العربيّ: فإنْ كنتُ أشكر الآداب باسم إخوتي الفلسطينيين على دورها الثقافيّ القوميّ الرياديّ الذي كانت تقوم به وتقاتل اليومَ كي تستمرّ بالقيام به، فإنّني أشكر إخوتي من المبدعين الفلسطينيين المقاتلين من أجل هوية وطنية مبدعة، آملاً أن يضعوا أمام القارئ العربيّ دائمًا نصوصًا ترتقي إلى مستوى القضية الوطنية التي يدافعون عنها.

دمشق